أدباء الحوزة العلميّة في النجف الأشرف ومقارعة الاستعمار
شعر الشيخ محمّد رضا الشبيبيّ أنموذجًا

حسين الساعدي[1]

الملخّص

إنّ المرجعية الدينيّة هي الامتداد الطبيعي لخطّ الرسالة المتمثّل بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، كما أنّها الامتداد الطبيعي لخطّ الإمامة المتمثّل بالأئمة الاثني عشر عليهم السلام، إذ كانت المرجعيّة الدينيّة حصنًا للدين، ودرعًا لحفظ شريعة سيّد المرسلين، ولقد أدّت المرجعيّة الدينيّة دورًا أساسيًّا في استيعاب ونشر العلوم لسدّ حاجات المجتمعات ولم تدّخر في هذا المجال جهدًا إلّا بذلته فقد بيّنت وبلغت الأحكام الإلهيّة ومسائل الحلال والحرام، وبذلت قصارى جهدها في تعليم المفاهيم الإسلاميّة الحقيقية، وفضلًا عن الدور الأساسي الذي قام به العلماء في مجال بيان الأحكام الإلهيّة وحفظ التراث الشيعي فقد اهتموا بإصلاح المجتمع، وتحسين أوضاع الناس والدفاع عن المقدسات الدينيّة والكرامات الوطنيّة.

يعدّ الشيخ محمّد رضا الشبيبيّ من أدباء وشعراء العراق الأفذاذ، وثوّاره الأحرار، جمع إلى جانب أشعاره الوطنيّة والوجدانيّة المليئة بالعواطف والأحاسيس الملتهبة مواقفه البطولية في سوح الجهاد، فكان مثالًا حيًا للإنسان

١. باحث في علوم اللغة العربيّة وآدابها - العراق.

الوطني المخلص الذي يطمح إلى تحرّر بلاده من أغلال الاستعمار، كما كان أنموذجًا رائعًا لقادة الفكر وحاملي لواء النهضة الفكريّة والاجتماعيّة ليس في العراق فحسب، بل في جميع البلدان التي تسعى للنهوض والتقدم فكانت مبادئه السامية ومواقفه المشرّفة نبراسًا تهتدي به الأجيال جيلًا بعد جيل. عاصر الشبيبي في المدّة التي عاشها، أواخر الحكم العثماني على العراق، وبعده الاحتلال البريطاني، ثم الحكم الملكي في مدّة الانتداب والاستقلال، وانتهت في عهد الجمهوريّة. عيّن وزيرًا للمعارف عدّه مرّات في مختلف الوزارات كما أُنتخب أيضًا عضوًا في مجلس الأعيان ورئيسًا له عدّة مرّات. كان ينظر إلى السياسة بأنّها وسيلةٌ لخدمة الشعب؛ ولذا دائمًا يقدّم مصلحه الشعب على الألاعيب السياسيّة. ومن هذا المنطلق كلّما أحسّ بهضم حقّ المواطنين لصالح السياسة، استعفى من منصبه السياسيّ، فلهذا كان يعرف بين وسط السياسيين بالسياسيّ ذي النزعة الشعبيّة. وأمّا في الجانب الأدبي، فهو يعد شاعرًا من أبرز شعراء العراق الحديث، وكاتبًا ضليعًا، ومؤرّخًا بحّاثة، وناقدًا أدبيًّا بعيد النظر، حديد البصر، دقيق الملاحظة. وكان عضو مجامع اللغة العربيّة في دمشق، وبغداد، والقاهرة.

فهذه الدراسة التي اعتمدت على المنهج الوصفي التحليلي تهدف إلى معالجة مفاهيم المقاومة في شعر الشبيبي، ومن أهمّها رفض ظلم الاستعمار، وانتقاد سياساتهم والتنديد بالحرب، والدعوة إلى وحدة الشعب، والثورة على الطغيان والاستبداد في سبيل نيل حريّة الوطن.

الكلمات المفتاحيّة: المقاومة، الاستعمار، الوطن، النجف، العراق، الشبيبيّ.

مدخل

لا شك في أنّ الشعر من مظاهره العظيمة استنهاض همم الشعوب ضدّ إرادة الطغاة الذين لا يعرفون إلّا الكبت والقمع، وانعكس صداها واضحًا في مجمل الإنتاج الشعري وتميّز بنزوعٍ واضحٍ نحو الاندماج بالمجتمع وقضاياه السياسية تحديدًا، ومعايشة الهمّ الوطني الذي حمله الشعراء في ضمائرهم، وحوّلوا قصائدهم إلى أسلحةٍ حقيقيّةٍ تعرّي وقاحة الطغاة والمحتلّين، وتدفع الشعوب وحُراكها الوطني إلى محطّات الفعل الثوري، ولقد ورث الأدب العراقي المعاصر ومن قبله الأدب الحديث هموم المجتمع العراقي، وإنعكست الأحداث السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة على مضامينه بشكلٍ كبيرٍ بسبب حالة الفوضى السياسية والتبعيّة والاحتلال الأجنبي، إلّا أنْ المنجز الفنّي الذي تحقّق للشعر على يد مجموعةٍ من الشعراء لا سيّما شعراء مدرسة الشعر الحر، قد أسهم في إحداث نقلةٍ كبيرةٍ خلّصت الشعر من التبعيّة الفنيّة التي نألفها عند شعراء الاتجاه الكلاسيكي، ومنهم الكاظمي، والزهاوي، والرصافي، والشبيبيّ، فقد كان الشاعر قبل ذلك يعيش حالةً من الانفصام عن الواقع على الرغم من تعلّقه بمجريات الأحداث السياسيّة. وعندما نتكلّم عن أدب المقاومة، سرعان ما يتبادر إلى الذهن محاربة الظلم والفساد الذي ينعكس فيه القضايا الاجتماعيّة والسياسيّة والأيدولوجيّة والاخلاقيّة؛ لأنّ العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقةٌ قديمةٌ، وكما يؤثّر الأدب على المجتمعات تؤثّر المجتمعات على الأدب. بتعبيرٍ آخر إنّ العادات والتقاليد والعقائد والنهضات التي انعكست في الأدب هي في الوقت نفسه وليدة الآثار الأدبيّة. لا شك في أنّ شعر المقاومة يُعدّ نوعًا من التصدّي لكلّ أشكال الاستعمار والاستبداد؛ كما لا يخفى أنّ شعر شعراء المقاومة

ينمّ عن مشاعرهم القلبية من حبٍّ وغضبٍ وحرمان. والشاعر المقاوم يجمع بين مصيره ومصير أمّته، ويتحمّل السجن والمنفى والاضطهاد ليقوم في وجه أعداء شعبه، وينفض عن أمّته غبار التخلّف والعذاب والتوتر.

يعدّ أدب المقاومة ضمن الأدب الملتزم والسياسي الذي يعبّر عن جهود شعبٍ تعرّض لهجومٍ عسكريّ أو ثقافي أو ديني، وعن تضحياته وكفاحته ومظلوميته، وهو يعاني من الحرمان والمتاعب في هذا الطريق، وخلافًا لما كان في الماضي العتيق عند العرب بأنّ الشعرَ ديوانهم وسجل أيّامهم، بل هو بُني على تفاعله مع المجتمع وثقافته وهمومه ومعاناته، وسروره وانتصاراته، وقضاياه المختلفة والمتنوّعة؛ فيعدّ انعكاسًا لأحوال أبناء ذلك المجتمع، وآماله، وتطلّعاته.

تحتوي مادة الشعر المقاوم، الصمود والدفاع عن النفس والحرية والحياة الاجتماعيّة وإرساء مبدأ الديمقراطيّة والتداول السليم للسلطنة. وشعراء المقاومة هم الذين يصوّرون في أناشيدهم قهر الظالمين والمصائب الواردة على المظلومين وتحريضهم على أخذ حقوقهم من المستكبرين ودعوتهم إلى النضال ضدّهم.

لم تكن لتلك الكوكبة من الشعراء مسمّى واضح إلّا في منتصف القرن العشرين عندما احتلّت إسرائيل فلسطين، ونهبت الأرض والعباد. فمنذ ذلك الزمن ظهر شعر المقاومة وشعراؤها بشكلٍ خاصٍّ كما نراه اليوم.

فالعراق يُعدّ من أكثر البلدان مقاومةً للمحتلّين والغزاة، وبسبب موقعه المتميّز عان الويلات من الطامعين والمحتلّين، وشهد أسوأ الأدوار، أبرزها: عهد الحكم العثماني (القرن ١٩)، والاستبداد البريطاني، ثم حكومة حزب البعث العراقي (القرن ٢٠)، وأخيرًا الاحتلال الأميركي.

لا شك في أنّ الحروب العثمانيّة والاستبداد البريطاني والفساد والاختناق

الحاكم في المجتمع العراقي كان لها تأثيرٌ بالغٌ في إثارة مشاعر الناس لا سيّما الشعراء، ومنهم السيّد الحبّوبي، والشيخ محمد رضا الشبيبيّ، الذين خلقوا نوعًا جديدًا من الشعر في ذلك المجتمع باسم (الشعر المقاوم) احتجاجًا بوجه الظالم.

أ. تاريخ العراق السياسيّ

إنّ العراق بسبب موقعه الاستراتيجي كان محطّ أنظار البلدان الأجنبيّة منذ القدم، فتاريخ العراق، تاريخ ثورةٍ وكفاحٍ، وتاريخ إخفاقاتٍ تكسر القلوب وتحزنها. كان العراق في العهد العباسي (٦٥٦- ١٣٢) من أهمّ حواضر العلم والثقافة والمدنية وأخصبها. لكنّه قد اعتورته ضروبٌ شتّى من المحن والتدهور إثر هجوم هولاكو خان في سنة ٦٥٦ هـ، فأصاب من عزّته وازدهاره، وأوهنه الضعف والتّخلف[1]، وقد مرّ بالعراق شتّى الأدوار السياسيّة التي أضاعت شخصيّته، وأفقدت أصالته ومسخت حضارته. فقد تداولته عدّة أنظمة مستبدّة وحكّام أجانب.

الدولة العثمانيّة

تولّى الأتراك العثمانيّون أمور المسلمين بعد انهيار الخلافة العبّاسيّة وسقوط عاصمتها بغداد بأيدي التتار، فصار المسلمون ميراثًا لبني عثمان بعد أنْ كانوا ميراثًا لبني أميّة، ثمّ بني العبّاس. هم دخلوا في الإسلام وأدانوا به، فاستقاموا عليه حينًا وشرّدوا حينًا آخر. إنّ العثمانيين تلقّوا راية الإسلام بقوة، لكنّ عاطفتهم نحو الإسلام كانت أقوى من فقههم فيه وحماستهم له أشدّ من تفهّمهم لروحه [2]. «مؤسّس هذه الدولة أرطغرل بن سليمان شاه التركماني، قائد إحدى

١. فاخوري، حنّا، تاريخ الأدب العربي، ٥١٥.

٢. الغزالي، محمد، الإسلام والاستبداد السياسي، ٢٠٦- ١٠٤.

قبائل الترك النازحين من سهول آسيا الغربيّة إلى البلاد آسيا الصغرى. ولما توفي أرطغرل سنة ٦٨٧ هـ، عيّن الملك علاء الدين مكانه، وهو عثمان مؤسس الدولة العثمانيّة[١]».

بدأ العهد العثماني في العراق بانتصار السلطان سليمان القانوني على الصفويين واستيلائه على بغداد عام ١٥٣٤م وقد دام حكم العثمانيين أربعة قرون على التقريب، وانتهى باحتلال القوات البريطانيّة للعراق والعاصمة بغداد سنة ١٩١٧م. تعدّ الدولة العثمانيّة في عهد السلطان سليمان القانوني، العصر الذّهبي؛ لأنّ في عهده توسّعت التّجارة، وتحسّنت نوعًا ما ظروف المعيشة والاقتصاد، وبُنيت أبنية جديدة في المدن العراقيّة لاسيّما بغداد. توفّي سليمان القانوني سنة ١٥٦٦م. فقد جاء بعده ملوك عدّة لكنّهم لم يتعقبوا خطوته ولم ينهجوا منهجه. ثمّ وصلت الخلافة إلى السلطان سليم الثالث سنة ١٧٦٩م، وكانت الدولة في الضّعف والتفّسخ والاحتلال وكانت الانكشاريّة (هم من الجيوش العثمانيّة معروفة بالهمجيّة والنهب) على رأس هذه الأمور، يعملون الأعمال الشنيعة، ويسيرون وفق أهدافهم والبلاد في فوضى، حتى ترسّخت فكرة الإصلاح في أذهان العثمانيين. فبدأ السلطان محمود بإصلاح الأمور من الوجهة الإداريّة والعسكريّة، وأخذ ببعث المنشورات الإصلاحية إلى الولاة لكنّه مات، وبعد ذلك استمر رجال الدولة بتلك الحركة الإصلاحيّة إلى عهد السلطان عبد الحميد والسلطان عبد العزيز.

فألّفت القوانين العديدة التي كانت مقتبسةً من القوانين الفرنسيّة مع مراعاة نصوص الشريعة الإسلاميّة. فرجال الدولة دوّنوا قوانين متعددّة لكلّ شأنٍ من

١. عبد الحكيم، عمر، دعوة المقاومة الإسلامية العالمية،٣٥٤.

شؤونات الدّولة وسمّوه بالدستور. لكنّ نظام الحكم كان مطلقًا ورأي السلطان وإرادته فوق كلّ قانون، حتى وصلت الخلافة إلى السلطان عبد الحميد سنة ١٨٧٦م، فزادت في زمنه شدّة سوء الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة والفتن الطائفيّة[١] في العهد العثماني، و«انحطّ الأدب العربي إلى أسفل الدرك؛ لشيوع التركيّة في المخاطبات والمراسيم والدواوين، وتسلّطت الخمور على العقول، والتقليد على المعاني، والصناعة المقيتة في الأساليب[٢] »، وساد الأمّة العربيّة ثالوث الفقر والمرض والجهل، وأخذ الحكّام العرب يفرضون الضرائب الثقيلة على الشعب ويسوطونه بالاستبداد. هكذا انتهى الحكم العثماني بدخول العساكر البريطانيّة إلى بغداد سنة ١٩١٧م.

الاحتلال الإنجليزيّ

كان العراق ولايةً عثمانيّةً منذ عام (١٥١٦م- ٩٢٢هـ) وحتّى (١٩١٧م ـ ١٣٣٥هـ)، وتنافست لاحتلاله الدول الأجنبية من مثل ألمانيا وفرنسا وإنجلترا. ولما اندلعت الحرب العالميّة الأولى سنة (١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م) تحرّكت القوات البريطانيّة من الهند لاحتلال العراق ففازت هذه الجيوش، واستولت على بعض المدن العراقية كالفاو والبصرة، وسيطرت على جنوب العراق تدريجيًا سنة (١٣٣٣هـ -١٩١٥م)، وفي سنة (١٣٣٥هـ - ١٩١٧م) احتلّت المدن الأخرى مثل: بغداد، والموصل، وفي النهاية أعلنت بريطانيا انهاء تبعية العراق للدولة العثمانيّة [٣]. أدّى انتصار الحلفاء في الحرب العالميّة الأولى وهزيمة الدولة

١. أبو الشّباب، واصف، القديم والجديد في الشعر العربي الحديث، ١١.
٢. فاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي ،٨٦١.
٣. عبد الحكيم، عمر، دعوة المقاومة الإسلامية العالمية،٤٤٤.

العثمانيّة، إلى تقسيم المشرق العربي إلى دويلات. بموجب اتّفاقية (سايس بيكو) في مؤتمر (سان ريمو) سنة (١٣٣٨هـ - ١٩٢٠م)؛ إذ جُعل العراق تحت حماية الدولة البريطانيّة [١].

بعد ذلك دخل العراق مرحلةً جديدةً من حياته السياسيّة وواجه لونًا جديدًا من الاحتلال، وهو لبس جلباب التدين والإسلام دون أنْ يراعى فيه الإسلام وقوانينه الإلهيّة. إنّ من أهم أسباب هجوم الإنجليز على العراق واحتلاله، هو تمتّع العراق بالثروات الزراعيّة والمعدنيّة الكثيرة ممّا يجعله محطّ أنظار الأجانب، ثمّ كون العراق على شواطىء الخليج واقترابه من بلاد الهند حيث يمكن من خلاله الوصول في أقلّ وقت إلى الهند التي تتميّز بارتقاء مستواها الاقتصادي والتجاري، جعل العراق في أحسن المواقع الاستراتيجيّة [٢]. من الجليّ أنّ الدولة البريطانيّة دفعت التعويضات الكبيرة لإسقاط الحكم العثماني حتّى بلغ عدد قتلاهم أكثر من مائة ألف نسمة [٣].

ثورة (١٩٢٠م)

احتلّ الإنجليز كلّ المدن العراقيّة على التقريب. والشعب العراقيّ لم يكن راضيًا على الحكومة العثمانية وطريقة حكمها الجائر والمتسلّط، فوصل الأمر إلى حدّ أنّ بعض القبائل كانت تساند القوّات البريطانيّة وتعاونها في أمر خروج العامل العثماني من البلد. لكنّ سرعان ما رفع الإنجليز البرقع عن وجهها وعرف العراقيّيون أهداف بريطانيا الشيطانية ونيّاتها غير السليمة، فبدأوا بالمقاومة تجاه

١. أبو الشّباب، واصف، القديم والجديد في الشعر العربي الحديث، ١٢.
٢. قدورة، زاهية، تاريخ العرب الحديث، ١٣٠-١٢٩.
٣. فوستر، هنري، نشأة العراق الحديث، ١٥٦.

قواته المحتّلة وقاموا بثورة (١٩٢٠م)، على إثر (مؤتمر سان ريمو)، وتقرير وضع العراق تحت الحماية البريطانيّة وانتشرت الثورة في كلّ أنحاء البلد، من الموصل إلى البصرة، وحدثت مظاهراتٌ في كربلاء والحلّة تطالب باستقلال العراق وتشكيل الدّولة العراقيّة العربيّة، فاسترجعوا مدنهم من الإنجليز المحتلّ واحدةً تلو الأخرى، ولم يبق في أيدي الإنجليز سوى البصرة وبغداد والموصل. إثر اندلاع هذه الثورة في العراق بقيادة علماء ومراجع التشيّع وسائر العشائر والقبائل العراقية، قرَّرت المقامات البريطانية أنْ تنشىء حكومةً وطنيّةً في العراق، فجعلوا السر برسي كوكس مسؤولًا لهذه القضية. فصمّم كوكس أنْ يقيم في أوّل الأمر وزارةً مؤقتةً برئاسة النقيب الذي أعلن تشكيل الوزارة في ٢٥ تشرين الأول، وعند تشكيل الوزارة النقيبيّة المؤقّتة بدأت سياسة تقليص عدد البريطانيين والهنود، وتكثير العراقيين في الوظائف الحكوميّة[١]. والمجلس المذكور تولّى إدارة البلد حتى صار فيصل ملكًا للعراق. قد أصاب الإنجليز خسائر فادحة إثر ثورة ١٩٢٠م منها: قتل ٤٢٦ فردًا، وجرح ١٢٢٨ فردًا، وأسر ٦١٥ فردًا، إضافةً إلى أضرارٍ جسيمةٍ في الأموال[٢].

بداية الحكم الملكيّ (١٩٥٨م-١٩٢١م)

للتخلّص من الحكم المباشر ولإزالة الغضب عن الشّعب العراقي اكتفى الإنجليز بالسلطة غير المباشرة. فاتخذ القرار بتعيين شخصٍ عربيّ ملكًا للعراق. فعرضت بريطانيا عرش العراق على الملك فيصل مع تأسيس حكومةٍ عربيّةٍ تحت الوصاية والانتداب البريطانيّ. فدخل العراق في المرحلة الجديدة من حياته

١. الوردي، علي، لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق، ٤٠ -٩.

٢. نفيسي، عبدالله فهد، نهضت شيعيان در انقلاب إسلامي عراق، ١٤٤.

السياسيّة، المرحلة التي على رأسها حاكم عربيّ، لكنّه كان رهن إشارة الإنجليز[١]. تقرر أنْ يكون التتويج في يوم ٢٣ آب/ ١٩٢١م. وقد اختار فيصل نفسه ذلك اليوم؛ لأنّه يوافق يوم ١٨ ذي الحجة حسب التقويم الهجري. هذا اليوم الذي سمّاه الشيعة عيد الغدير، وقد أراد فيصل بانتخاب هذا اليوم، تذكير الشيعة بأنّه من سلالة الإمام عليّ عليه السلام وتتويجه حدث في نفس اليوم الذي نُصِّب فيه جدّه للخلافة[٢].

العراق عضو في عصبة الأمم المتّحدة

أُنتخب نوري السعيد رئيسًا للوزراء من جانب الإنجليز سنة ١٩٣٠م. وهو كان عميلًا تنفيذيًّا لخطط الإنجليز الاستعماريّة، وأبرم معاهدة مع الإنجليز تؤدّي إلى تسلّط الإنجليز على مصادر العراق النفطيّة لسنين طويلة بشرط قبول العراق عضوًا في عصبة الأمم. وهذه المعاهدة جعلت العراق في أظفار الاستبداد أكثر من ذي قبل، وجعل العراق في أزمةٍ سياسيّةٍ واقتصاديّةٍ وعسكريّة، واستمر الوضع المتأزّم حتى سقوط الحكومة الملكّية في سنة ١٩٥٨م[٣]. مات الملك فيصل سنة ١٩٣٣م وتولّى الملك غازي الحكم بعده. تزامن حكمه بالاضطرابات والفتن وحدثت الثورات المختلفة في أنحاء البلاد، واختلّ سير الإدارة وأهين الدستور. فقُتل الملك غازي سنة ١٩٣٩م، وتلاه فيصل الثاني وهو حديث السن، فصار عبد الإله ونوري السعيد نائبين له في إدارة البلد. فاندلع لهيب الحرب العالمية الثانية في تلك السنة، وفي تلك المدّة تحمّل العراق خسائر فادحة لا تعوّض[٤].

١. الواعظ، رؤف، الاتجاهات الوطنيّة في الشعر العراقي الحديث، ١٢٩-١٢٨.
٢. الوردي علي، لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق، ١٢٠.
٣. الجميلي، ع، نگاهي به تاريخ سياسي عراق، ٢٤.
٤. الحسني، عبد الرزاق، تاريخ العراق السياسي الحديث، ٤٥.

ثورة رشيد الكيلاني (١٩٤١م)

في اليوم الأول من شهر نيسان سنة ١٩٤١م، قام رشيد عالي الكيلاني مع أصدقائه بانقلابٍ على حكومة ولي العهد عبد الإله؛ ففرّ الملك ونوري السعيد من البلد، وتألّفت الوزارة برئاسة الكيلاني. كانت بريطانيا تخاف أنْ يقوم الكيلاني بوقف إمدادات النفط إلى الدول الغربيّة، ومن أجل هذا قامت بغزو العراق واستعادة الملكيّة مرّةً أخرى، فعاد الملك ونوري السعيد إلى البلد، وقبضا على دفّة الحكم مرّةً ثانية[١]. تألّفت خمسون حكومةٍ خلال الفترة الملكية، وهذا يدلّ على عدم استقرار الحكومة وعدم ثباتها أيضًا.

الحكم الجمهوري (١٩٦٨-١٩٥٨م)

قام ضباط الجيش بانقلاب في ١٤ تموز عام ١٩٥٨م، أدّى إلى القضاء على الملكيّة، فتألّفت الحكومة الجمهوريّة برئاسة عبد الكريم قاسم. وقد حدثت في الحكومة الجمهوريّة إصلاحات منها، رجوع المنفيين إلى البلد، تساوي حقوق النساء والرجال، إحداث سكّة الحديد، وبناء البنايات الجديدة، وتأسيس المعامل والمصانع، وإحداث المتنزّهات العامة وغير ذلك[٢].

ب. حياة الشيخ محمد رضا الشبيبيّ

الشيخ محمد رضا بن الشيخ جواد بن محمد بن شبيب بن إبراهيم بن صقر البطايحي، الشهير بالشبيبيّ. ولد في النجف الأشرف، رمضان عام ١٣٠٦هـ المصادف ٦ أيار عام ١٨٨٩م. والأسرة الشبيبيّة من أشهر الأُسر العلميّة في

١. الواعظ، رؤف، الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث، ١٢٩-١٢٨.
٢. الجميلي، ع، نگاهي به تاريخ سياسي عراق، ٧٢- ٦٣.

النجف الأشرف، قدمت من جنوب العراق وبالتحديد من مدينة البصرة، وهي فرعٌ من قبيلة بني أسد. درس الشبيبيّ على أشهر علماء عصره كالشيخ محمد حسن المظفّر، والسيّد مهدي آل بحر العلوم، والسيّد حسين الحمامي، والسيّد هبة الدين الشهرستاني، والسيّد حسين القزويني، والشيخ هادي آل كاشف الغطاء، وأيضًا تتلمذ على أبيه الشيخ محمد جواد الشبيبي الذي تعدّه المدرسة الدينيّة من ألمع أساتذتها فضلًا عمّا امتاز به من قوة شخصيّةٍ إثر مواقف وطنيّة مهمة، إلى جانب ملكته الشعريّة.

وفي مطلع شبابه عاش واقع العراق الصعب في وقت كانت الدولة العثمانيّة آيلةً إلى السقوط، ثم وقع العراق تحت الاحتلال البريطاني عام ١٩١٨م. ولا يخفى ما كان عليه واقع العراق آنذاك من تخلفٍ شامل[١].

وفاته وتشييعه

توفّي فجر يوم الجمعة ٢٥/ ١١/ ١٩٦٥ إثر نوبةٍ قلبيّةٍ ألَمَّت به، وكانت وفاته بعد يومٍ واحدٍ من عودته من القدس، حيث كان مشاركًا في أنشطة الاحتفال بالإسراء والمعراج الذي عقد في القدس. وقد شُيِّع جثمانه تشيعًا مهيبًا من مسكنه في الكرّادة الشرقيّة إلى الكاظمّية، ومنها إلى جسر الخير سيرًا على الأقدام مسافةً طويلةً، تحمل نعشه الأكفّ في خشوعٍ وإجلال، ثم نقل إلى كربلاء في موكبٍ فريدٍ ضمّ أكثر من ألف سيارةٍ، ثم شيّع إلى النجف الأشرف، ودفن في مقبرة آل الشبيب، واشترك في تشييعه كبار الأدباء والعلماء والمسؤولين في الدولة.

١. آقابزرگ الطهراني، محمد حسن، الذريعة الى تصانيف الشيعة، ق:ج٢، ص:٧٤٥-٧٤٧.

أعماله الشعريّة ومؤلّفاته

خلّف الشبيبيّ العديد من الآثار يقف في مقدمتها ديوانه الذي طبع في القاهرة عام ١٩٤٠م. وفيه نماذج اختارها المترجم له من شعره الكثير، ويضمّ عدّة أبواب منها: الشعر الحماسي، والشعر الحكمي، والشعر الاجتماعي والسياسي، والرثاء، وله مجموعة مراثٍ في زوجته تعدّ من أجمل الأشعار الوجدانيّة، ومن بين الأغراض النادرة في الشعر العربي، وقد نشرها الباحث قصي سالم عثمان في ذيل دراسته بعنوان: (الشبيبي شاعرًا)، وهذه المجموعة بعنوان: (رنين على الأجداث). كما وردت نماذج كثيرة من شعره ضمن كتاب: (شعراء الغري)، وأغلبها ممّا أسقطه الشاعر من ديوانه؛ لأنّه ينتمي إلى مرحلة البدايات الفنية.

وله مؤلّفاتٌ منها: (ابن خلّكان وفن الترجمة)، و(مؤرّخ العراق ابن الفوطي في جزأين)، و(بين مصر والعراق في ميدان العلاقات الثقافيّة)، و(التربية في الإسلام). وله عددٌ من المؤلّفات الإبداعيّة والأدبيّة منها: مذكّرات الشبيبي (نشر منها عدة فصولٍ في مجلة البلاغ)، وكتابان في أدب الرحلات بعنوان: (رحلة في بادية السماوة)، و(رحلة إلى المغرب الأقصى). وله عددٌ من الدراسات والمحاضرات والتراجم والتحقيقات، منها: (تراثنا الفلسفي - حاجته إلى النقد والتمحيص)، و(القاضي ابن خلكان ومنهجه في الضبط والإتقان)، و(التربية في الإسلام)، و(أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصريّة ونصوصه العربيّة) محاضرة ألقاها في معهد الدراسات العربيّة العاليّة بالقاهرة[1].

١. عبد شناوة، علي، محمد رضا الشبيبي ودوره الفكري والسياسي حتى العام ١٩٣٢، ٢٥.

شاعريّة الشبيبيّ

يقول الجواهري، وهو من المولعين بشعر الشبيبي: «شاعرٌ مُجيد، واسع البال، رقيق أسلوب النظم، حلو الصناعة، رقيق التعبير. سارت بقصائده الركبان، وتغنّت ببدائعه البدو والحضر، شعره في الطبقة العليا. عذب الألفاظ رقيقها، صحيح المعاني فخمها[١]». وقال روفائيل بطي: «خيالٌ جميل، صناعةٌ عراقيّة، عليها مسحةٌ عبّاسيّة[٢]». وقال علي الخاقاني: «شاعرٌ فحل، قوي الديباجة، جزل الألفاظ، مبدعٌ في الخواطر، مرهف الحسّ، يحمل نفسًا كبيرة، وروحًا وثّابة، وقلبًا مفعمًا بحبّ الدين والوطن، وله لفتات وفلتات قد لا يزاحمه عليها غيره[٣]».

وقال في وصفه مير بصري الذي لازمه سنين طويلة، وحضر مجالسه، وأنس بزياراته وأحاديثه، ونعم بصداقته ومودته: «أضفى الزمان على الشاب الأنيس وقار المشيب، وجلال الشيخوخة، دون أنْ يفقد جمال نفسه وصفاء سريرته. وقد زادته الأيام حنكةً وحكمةً، دون أن تزيده ثروةً ومالًا». وقال عنه روفائيل بطي في كتابه (الأدب العصري): «شابٌّ أنيس، منخفض الصوت، تبدو عليه سيماء العلماء الذين أكمد لونهم الدرس الطويل، آية الأناة في تفكيره وكلامه وكتابته، غير مكثرٍ من النظم والنثر، لا ينظم باقتراح البتة، وهو الذي قال لي يوم طلبت إليه أنْ يعارض قصيدة (ياليل الصبّ): لا أعرف أمرًا يقال له الطلب إلى الشاعر أنْ ينظم كيت وكيت، والشعر شعورٌ تجيش به النفس ويصدر من القلب». وقال عنه عبد الكريم الأزري: «رجلٌ محنّك، حكيم، مجاهد، واقف للحق وقفة[٤]».

---

١. الجواهري، حلبة الأدب، ٢٦.

٢. مير بصري، اعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث، ١٥٣.

٣. الخاقاني علي، شعراء الغري، ٣٠.

٤. عبد شناوة، علي، محمد رضا الشبيبي ودوره الفكري والسياسي حتى العام ١٩٣٢، ٢٠٢.

نشاطاته السياسيّة

لا يمكننا الفصل بأيّ حالٍ بين الجانب الأدبي والفكري لهذه الشخصيّة والجانب السياسي؛ فقد مثّل الشبيبيّ واحدًا من أكبر الشخصيّات التي أدّت دورًا أساسيًّا مؤثرًّا في السياسة العراقيّة في المدّة التي نشط فيها (العهد العثماني، وعهد الاحتلال البريطاني، والعهد الملكي، وسنوات الانتداب، وحتى عهد تأسيس جمهورية العراق الحديثة) (١٩٠٨-١٩٦٥م)، ويظهر دوره السياسي جليًّا في المناصب العديدة التي تقلّدها خلال حياته بدءًا من وزارة المعارف، وحتى مجلس الأعيان، ومجلس النواب، ودوره في حركة المعارضة في العهد الملكي؛ إذ عُرف بالجرأة والصراحة وعدم المماألأة والمداهنة على حساب مبادئه ووطنه حتى إنّ جرأته كانت نادرة؛ لا ينافق ولا يمالق، ولا يداهي ولا يداجي، ولا يقول إلّا ما يصحّ في معتقده، ولا يعتقد إلّا ما يصحّ في رأيه (على حد تعبير أحمد حسن الزيات)، كما كانت له إسهاماتٌ سياسيّةٌ خارج العراق تمثّلت في رحلاته إلى الأردن والحجاز.

ويمكننا القول إنّ دراسة حياة الشبيبيّ السياسيّة هي في الحقيقة تسليطٌ للضوء على مراحل مهمةٍ من تاريخ العراق السياسيّ. وقد تأثّر الشبيبيّ في أفكاره الإصلاحيّة والسياسيّة - كما كان حال معظم المثقّفين الثوريين في تلك المرحلة - بأفكار جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا التحرّرية الإصلاحيّة التي كانت تصل العراق عن طريق مجلتي (العروة الوثقى)، و(المنار) وغيرهما، كما تركت ثورة الاتّحاديين عام ١٩٠٨م، تأثيرًا كبيرًا على الشبيبيّ، ولا سيّما مدحت باشا الذي كان العراقيّون من أشدّ المعجبين به بحكم احتكاكهم المباشر بإصلاحاته في بلادهم، وكان أهمّ ما دفع الشبيبي إلى الترحيب بثورة

الاتّحاديين هو ما علّقه من آمالٍ كبيرةٍ عليها بأنْ تؤدّي إلى انعتاق العراق من مشكلاته الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة التي تفاقمت بصورةٍ خاصّةٍ في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م). فكان من شأن شعارات الاتحّاديين (الحرية، والعدالة، والمساواة) أنْ تهزّ وطنيًّا متحمّسًا ومخلصًا مثل الشبيبيّ، ولكن سرعان ما أُصيب الشبيبيّ كأقرانه الوطنيين بخيبة أملٍ كبيرةٍ من سياسة الاتّحاديين التي انصبّت في اتجاهٍ قومي متعصّبٍ معادٍ للطموحات المشروعة للشعوب غير التركّية في الإمبراطوريّة العثمانيّة[١].

نظرة الشبيبيّ للدين والعلم

على الرغم من إجلال الشيخ الشبيبيّ للدين النابع من إيمان المؤمن العليم، ومن نشأته الدينيّة البحتة؛ فإنّه كثيرًا ما كان يهاجم رجال الدين عندما كان يجدهم أصبحوا حجر عثرةٍ في سبيل التقدم، فقد أراد أنْ يُفهم القوم أنَّ الدين ليس (عاداتٍ معطّلة)، بل أنّه (تحليل وتحريم)، فتوجّه إليهم في العام ١٩١١م، طالبًا منهم ألّا يجعلوا (آلة التفريق دينهم)؛ لأنّ الدين (عن وصمة التفريق معصوم). أجل إنّ الدين في نظر الشبيبي لم يكن (عاداتٍ معطلة)؛ لذا فإنّه دان بقوةٍ وقناعةٍ التقاليد البالية والخرافات، فهي التي أدّت إلى تأخّر الشعب فكريًّا وثقافيًّا، وهي التي كانت تؤثّر سلبًا على مسار النضال من أجل التحرّر والانعتاق.

يضع الشبيبي مع ذلك وغير ذلك الدين في المقام الأول بالنسبة لكلّ شيءٍ في حياة المجتمع، فيرفض أنْ يكون غير الدين محورًا لكلّ ما فيه خيره وسؤدده، فالأخلاق عنده تستقيم بالدين، ومن دون الأخلاق يذهب العلم ذهاب الزبد. والشبيبيّ بذلك يربط بين الدين والعلم بأسلوبٍ صوفيّ مبدع، ودون أنْ يكون

١. الشربتي، أحمد حامد، الشبيبي في حكمه وأمثاله، ٨٩.

سلفيًّا، إنّه على العكس تمامًا من ذلك، واقعيّ في تفكيره، متفائل، فهو يفكّر في (اليوم والغد)، بل وحتى في (ما بعد الغد)؛ لذلك يعدّ الشبيبي حقًّا الأنموذج المعبّر عن حقيقة أنّ العلم أداةٌ لتهديم قلاع الظلم والاستبداد والتخلّف، وضمان السير نحو المستقبل الأفضل، فهو يريد العلم العملي لكلّ شيءٍ، وفي كلّ ميدانٍ ومجالٍ سوى المدارس الدينيّة وحدها يستثنيها من ذلك، مع العلم أنّه لم يفصل العلم عن الدين، فإنّ الأوّل كلّما بلغ به التطور ساعد أكثر على تجلّي عظمة الخالق، كما أكّد في بحثه عن الاكتشافات الفلكيّة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك بكثيرٍ حين جعل الدين والعلم أخوين ارتضيا رحمًا واحدًا غير مقطوع ولا منفصل. لقد كان الجهل لدى الشبيبيّ يعادل الموت[1].

اهتمام الشبيبيّ بالاقتصاد

كان الشبيبيّ يبدي اهتمامًا بالاقتصاد العراقي، وخاصّة القطاع الزراعي، ويدعو إلى تشجيع الزراعة. كما كان يقف بصلابةٍ ضدّ هجرة أبناء الريف إلى المدن، ويقول إنّ ذلك يؤثّر سلبًا في الإنتاج الزراعي. وبعنوان (مرافق منسيّة) كتب الشيخ محمد رضا الشبيبيّ مقالًا بصحيفة الزمان بعددها في ٤/ ٢٧/ ١٩٥٧م، قال فيه: «في البلاد مرافق اقتصاديّة قليلة، ولكنّها منسيةٌ محرومةٌ من العناية وفي مقدمتها مرافقنا الزراعية، وهذه المرافق أحقّ من غيرها بالحماية والتشجيع؛ لأنّ العراق بلدٌ زراعيٌّ قبل كلّ شيء، وقد دلّت التجارب على أنّ الحركة التجاريّة في جميع الأسواق تتوقّف على إزدهار المواسم الزراعيّة، وكثرة الطلب عليها من الخارج.

وها نحن نرى كسادًا ظاهرًا في الأسواق التجاريّة، وتردي المواسم الزراعيّة

1. www.almadasupplements.com.

في السنوات الأخيرة، وعدم التمكّن من تصريف منتجات العراق بأسعارٍ حسنة، ويشمل ذلك كافة المحاصيل من الحبوب والتمور وغيرها من المنتجات. من ذلك نفهم أنّ مرافقنا ومحاصيلنا الزراعيّة بحاجةٍ إلى حماية قويّة فعلى المسؤولين أنْ يبذلوا جهودهم، لترويج ما يصدر من العراق، والسعي إلى إيجاد الأسواق الخارجيّة. إننا نستورد بضائع مختلفةً من البلدان الأجنبيّة تبلغ قيمتها أكثر من مائة مليون دينار، وهي ثروةٌ طائلةٌ تتسرب إلى تلك البلدان الأجنبيّة، يجري كلّ ذلك من سمع المسؤولين وبصرهم، ولا يحرك ذلك منهم ساكنًا، لحفظ التوازن بين تجارة التصدير والاستيراد. والأنكى من ذلك أنّ أسواقنا تغصّ بالكماليّات من تلك الحاجيّات المستوردة، ولا يقتصر الاستيراد على الضروريّات، كما يجري ذلك بالبلاد، نظرة عابرة إلى المخازن التجاريّة في جميع أسواق العراق، تكفي لمعرفة أنّنا مغبونون، وأنّنا عالة على غيرنا»[1].

اهتمام الشبيبيّ بالعلم والعلماء

كان الشيخ محمد رضا الشبيبيّ يبدي اهتمامًا كبيرًا بالعلم والعلماء، ويدعو إلى الأخذ بأيديهم من أجل تقدّم البلاد وتطورها. ففي ٥/ ١٥/ ١٩٥٧م، كتب الشيخ الشبيبيّ عمودًا في جريدة الزمان البغداديّة بعنوان (المواهب الضائعة) تساءل فيه: «متى يكون بلدنا مقبرةً تُدفن فيها مواهب الموهوبين وكفايات الأكفاء؟ متى تكون مدنه ميدانًا يصول فيه الجهل ويجول وتحترم فيه البلادة والغباء وتنقلب المقاييس؟ متى تعمّم الدراسات العلميّة والبحوث الأدبيّة؟ من يشجّع ذويها ويأخذ بيدهم بدون تفريقٍ أو تمييز؟ نقول: يقع ذلك، بل يقع أسوأ منه في كلّ بلدٍ لا يبالي بالعلم وذويه. وفي العراق في هذا الوادي الحبيب أي وادي

١. المصدر نفسه.

الرافدين، ذلك الوادي الذي انبثقت منه أنوار الحضارة والعلوم والفنون بأسرها حقبًا غير قليلة. في هذا الوادي الحبيب وادي الرافدين مهد الحضارة، بقية باقية من ذوي المواهب والكفايات العلميّة والأدبيّة، تقتل لياليها سهرًا بالتجهيز والكتابة، وتُنشئ ما تُنشىء من القطع الفنيّة منثورها ومنظومها، فهل سأل سائل في هذه البلاد عن الفئة المذكورة؟ وكيف تعيش وكيف تسدّ رمقها وكيف تطعم أطفالها، وكيف تكسوهم، وأين يقيمون ويسكنون؟ ومن هو الذي تفقد هذه الفئة المغمورة وعني بأمرها وبإنتاجها؟ وهيهات أنْ يتفقد متفقّدٌ أصحاب المواهب والكفايات في بلدٍ يطغى فيه التكالب والنزعات الماديّة البحتة، وتطاحن المتطاحنون فيه على حطامٍ زائلٍ لا يبالون كيف حصل بأيديهم ذلك الحطام، وهل جاءهم من وجوهٍ مشروعةٍ أو غيرها؟ لا شك أنّ هناك قومًا مسؤولين دائمًا عن هذا الضرب من التقصير بحقّ ذوي المواهب والكفايات، وهو في الوقت نفسه تقصير في حقّ الوطن، وفي تفهّم مصالحه، وأسباب حياته، والعمل على إنهاضه من كبوة الخمول»[1].

ج. أدب المقاومة في شعر الشبيبيّ

المقاومة أُخذت من فعل (قاوم)، وقاوم فى اللغة يعني ثبت، وصمد، ولم يضعف، وخاصم، وشاجر. و«المقاوم: من يعلن المقاومة، والمقاومة: صمود في وجه المهاجم[2]. و«في هذه الكلمة دلالةٌ وإشارةٌ كافيةٌ على أصل معنى الصمود والتحدي وما تنطوي عليه الكلمات من الرفض والعصيان والثورة، وتقع المقاومة بين الحريّة والعدوان؛ حيث الحرية هي السعي للتخلّص من إضرار، ومن حيث

1. www.almadasupplements.com.

٢. الحموي، صبحي، المنجد في اللغة العربية المعاصرة: مادة قوم.

إنّ العدوان هو التهكّم والاحتقار والإرهاب بكلّ أشكاله»[١]. تحدث المقاومة حينما لا يشعر الشخص بالأمن والراحة في حياته الفرديّة والاجتماعيّة، أو حينما يرى أنّه يفقد كرامته الإنسانيّة وعزّته الذاتيّة؛ فيبدأ بالدفاع عن شرفه وعزته المهدورة بما عنده من القوى. إذًا «الاحتلال يولد المقاومة، وما دام الاحتلال قائمًا فإنّ وجود المقاومة ضرورةٌ ملازمةٌ له»[٢].

وأدب المقاومة في الاصطلاح أدب الصرخة الشجاعة بوجه الظالم، وصيحة المظلوم بوجه الغاصب المستبدّ. يدعو أبناء الأمّة لنبذ المذلّة عن أعناق عباد الله. وشعر المقاومة هو المقاومة أمام التشرّد والإخراج لأجل البقاء في الأرض المقاومة أمام المنع وإزالة الهويّة الثقافيّة والوطنيّة. أما التعريف الشامل والكامل لأدب المقاومة يتمثّل في إطلاق اصطلاح أدب المقاوم على الآثار الأدبيّة التي تبدو عند ظهور المجالات الخاصّة ككبت الحريّة والاستبداد الداخلي، ثم عدم الحرية الشخصيّة والاجتماعيّة أو الاغتصاب الخارجي والمقاومة أمام تيّارات ضدّ الحرية. إذًا أدب المقاومة هو الذي يحثّ الناس على التحدّي أو الهرب والنجاة ممّن يحاولون السيطرة عليهم[٣].

أدب المقاومة (نشأته وتطوّره)

المقاومة هي الثبات والدفاع عن النفس والكرامة الإنسانيّة والحياة، ويمكن القول بأنّ كلّ شعرٍ يستوعب هذه الأفكار فهو شعر مقاوم. وشعراء المقاومة هم الذين يتكلّمون عن حقوق الشعب الضائعة، ويحرّضون الشعب على استرجاع

١. معروف، لويس، المنجد فى اللغة والإعلام، نشر اسماعيليان، ٦٦٣.
٢. الحمد، جواد وإياد البرغوثي، دراسة في الفكر السياسي لحركة المقاومة ٥٦.
٣. المصدر نفسه، ٥٦.

حقوقهم من الظالمين، وينبّهونهم على عدم الخضوع للمستكبرين. لم يكن لهؤلاء الشعراء اسمٌ خاصٌّ حتى عام ١٩٤٨م؛ عندما حدثت كارثة فلسطين، وشُكّلت الدولة الصهيونيّة. فبدأ شعر المقاومة وظهر شعراؤها. إنّهم كانوا يتكلّمون عن آلام الشعب العربي المضطهد عامةً وفلسطين المغتصبة خاصةً. يُعتقد أنّ إبراهيم طوقان المؤسّس لهذا النوع من الشعر، أي أدب المقاومة. لكننا إذ دققنا النظر، نرى مظاهر أدب المقاومة بأشكالها المختلفة في شعر الشعراء في كلّ عصر من العصور؛ لأنّ من أهمّ محاور أدب المقاومة هي قضية الحرب والنضال؛ إذ إنّ عمر الحرب يكاد أنْ يساوي عمر الإنسان على الكرة الأرضية منذ معركة قابيل وهابيل والصراع بينهما[١].

أدب المقاومة في العصر الحديث

بعد استيلاء المغول ثم العثمانيين والمماليك على البقاع العربية، مُلِئت البلاد العربية بالظلم والاستبداد والنهب والخراب، فكان الناس يعانون من مرارة العيش، وكان الشعراء هم لسان الشعب ـ منذ الجاهلية فصاعدًا ـ فالتجأوا إلى ذكر مظالم الأتراك، وإلى المدائح النبويّة والاستشفاء بالأولياء. انتهى العهد التركي بحملة (نابوليون بونابرت) على مصر، فبعد دخول العوامل الأجنبيّة إلى بلاد العرب، صار الأدب ميدانًا للصراع السياسي، والتزم بأمور الشعب حتى صار مرآةً تعكس الحياة الاجتماعيّة وآلام الشعب وما مرّ به من الظلم والاضطهاد، كما وقف ضدّ هؤلاء الظالمين الأجانب. إنّ الأدباء ومنهم الشعراء بدأوا بإنشاد الشعر السياسي والثوري الذي يتمحور حول هذين المحورَين:

المحور الأوّل: المقاومة ضد الاستعمار الأجنبيّ وتحريض الناس للثورة عليه.

---

١. كياني، حسين وسيّد فضل الله ميرقادري، شهيد وجانباز در شعر إبراهيم طوقان، شاعر مقاومت فلسطين، ١٢٨.

المحور الثاني: الاعتراض على الحكّام العرب الذين صاروا دمى بأيدي الأجانب، وكشف الستار عن أوجههم الحقيقيّة.

ومن أهم العوامل التي خلقت شعر المقاومة في الوطن العربي الحديث هي ثورات الشعب العربي وانتفاضاته ضدّ سلطة الأجانب للتخلّص من مظالمهم وتعذيبهم واحتلالهم، ومن أهمّها:

- انتفاضة الشعب المصري بقيادة (عرابي باشا) ضدّ الإنجليز التي أدّت إلى احتلال بريطانيا لمصر.

- ثورة الشعب العراقي ضدّ الاحتلال الإنجليزي سنة ١٩٢٠م، برئاسة علماء التشيّع وثوار العشائر.

- وثبة شعب الجزائر وليبيا ضدّ الاحتلال الفرنسي والإيطالي؛ بغية الاستقلال والتخلّص من حبال الاستعمار.

- نهضة جمال عبد الناصر في المعركة بين العرب وإسرائيل.

- الثورة الفلسطينيّة ضد الحكومة الصهيونيّة. وهذه الأخيرة من أهمّ العوامل التي برّزت النوع الجديد من الأدب باسم (أدب المقاومة) في الوطن العربي[١].

في منتصف القرن العشرين ذهب الأدب إلى ساحة المقاومة للغزو الصهيوني لأرض فلسطين ومنذ سنة ١٩٤٨م، صارت فلسطين من أهمّ محاور أدب المقاومة في بلاد العرب، بنحو لا نرى شاعرًا إلّا وقد خصّص الكثير من أشعاره للقضيّة الفلسطينيّة، كما أنّهم قد اكتسبوا مكانةً مرموقةً في ساحة أدب المقاومة إثر المقاومة الفلسطينيّة. منهم الشعراء الفلسطينيون كـ(محمود درويش)، و(عز الدين المناصرة)، و(سميح القاسم)، و(فدوى طوقان).

---

١. محسني نيا، ناصر، مباني أدبيات مقاومت معاصر إيران و عرب، ١٤٨.

وصفوة القول أنّ أدب المقاومة في العصر الحديث تطوّر بتطور الزمن، لظهور العوامل الأجنبيّة في بلاد العرب والمقاومة ومظاهرها التي صارت جزءًا لا ينفك عن الأدب. والشعراء كانوا أداةً مهمّةً للتعبير عن المشاعر الوطنيّة، وكان الشعر يتمحور حول أحاسيس الناس وآلامهم ومشاكلهم ويهدف وراء ذلك إلى إذكاء روح المقاومة والوعي لدى العامة.

أدب المقاومة العراقية

إنّ الأدب كمرآة تعكس جميع زوايا الحياة البشريّة. والشعر نوعٌ من الأنواع الأدبيّة، له مهمّة ورسالة وهي «الدعوة إلى إصلاح ما فسد من شؤون المجتمع، بل العالم نحو الأفضل»[١]. فالشاعر العربي منذ القدم كان لسان قومه الصارم، والمدافع عن حياضه، وهو لا ينسى مهمّته البشريّة تجاه قضايا شعبه الذي يعاني القهر والعسف والظلم. هو أديبٌ ملتزمٌ شجاعٌ لا يخاف من أيّ شيء «فالخوف من السجن ومن الاضطهاد، أمرٌ يتنافى مع توجه الشاعر الملتزم بقضايا شعبه ومشاكل مجتمعه وتناقضاته»[٢].

والشاعر العراقيّ الحديث الملتزم لا يُستثنى من هذه القاعدة؛ فبعد أنْ ساد الشعب العراقي ثالوث الفقر والجهل والمرض بسبب احتلال الأجنبي لمقدراته وأرضه، أدرك الناس عامّة والشعراء خاصة ضرورة التخلّص من نير الإستعمار والثورة على العادات والقوانين التي وضعها الاستعمار لهم. هم ينتهزون أيّ فرصةٍ مناسبةٍ ليعبّروا عن آرائهم السياسيّة، ويهتفون لتحرّر العرب وطرد المعتدين، والتفاخر بالشخصيّة العربيّة، ودعوة الجماهير إلى الثورة ضدّ حكم الأجانب المستكبرين.

---

١. دلشاد، جعفر وآخرون، الغربة في الشعر العراقي نموذجًا، ٣.

٢. أبو الشباب، واصف، القديم والجديد في الشعر العربي الحديث، ٦٣.

ويمكن القول إنّ شعر المقاومة لدى شعراء العراق بدأ منذ القرن التاسع عشر مع ظهور الظلم والاضطهاد من قبل الأتراك الأجانب؛ إذ «كان أغلب الشعر العراقي في القرن التاسع عشر، لا جميعه يقوم حول ما يمكن أنْ يُدعى بالموضوع السياسي الثوري، ويشكّل هذا النوع من الشعر السياسي أرقى مثالًا في العربيّة الحديثة للشعر الذي تجدّد بتأثير العوامل الخارجيّة، السياسيّة والاجتماعيّة»[١]. وعليه «فالأدب العراقي، أدبٌ حيٌّ يحمل في طيّاته آمال الأمّة الناهضة المتطلّعة إلى الحريّة والاستقلال، الطامحة إلى العلم والرخاء بعد عصورٍ طويلةٍ من الجهل والفقر والتخلف... ولم يخل من التطلع إلى الماضي وأمجاده الزاهية»[٢].

حب الوطن والحريّة

فى غمرة النضال من أجل الحقّ والعدالة وبناء كيان عراقٍ متحرّرٍ من قيود التقاليد البالية، ورواسب الجمود انطلقت شاعريّة الشبيبيّ ترسم للأحرار طريق الحريّة والنور، وتبني لهم من ثاقب رأيه، وصدق مبدئه، وأمانة عقيدته، الوسيلة الناجحة للوصول إلى الهدف الأمثل، ألا وهو الاستقلال التام والانعتاق من الظلم والجور والطغيان الذي تمثّل في مآسيه لدرجة أنّ الحزن والأسى أصبحا ملازمين لطبيعته النفسيّة، وقد وضّح الشاعر هذه الفكرة في مقدمة ديوانه؛ إذ قال: «كنّا في رهطٍ من الشباب العراقيين وغيرهم نفكر تارةً رسم أهدافنا، وطورًا في الوسائل التي توصلنا إليها. ولم نكن نستهدف في الواقع إلّا الحياة في ظلّ نظامٍ تُحترم فيه الحقوق والحريّات، وتفلح في كنفه المساعي، وتيسّر النهوض بالبلاد».

الشبيبي نذر نفسه لخدمة رسالته المقدسة، وضحّى بكل غالٍ وثمينٍ من

١. الجيلوسي، سلمى الخضراء، الاتجاهات والحركات فى الشعر العربي الحديث، ٤.
٢. بصري، مير أعلام الأدب في العراق الحديث، ٢٥.

أجل إعلاء كلمة الحقّ، وإرساء راية العدالة الخفّاقة على ربوع العراق ورافديه، وهو يختار أقسى مرحلة من مراحل بنائه، وتوطيد كيانه الحرّ المستقل؛ فالقارئ لو اطّلع على عناوين قصائده الموسومة بالوطنيات وحاول أنْ يتحسس ما وراء تلك العناوين من روحٍ متحمسةٍ، وقلبٍ كبيرٍ، وعقلٍ ثائرٍ؛ لأدرك بأنّ الشبيبي عاش ومات في (سبيل الشرق)، وسكب عواطفه الحارة، وأشواقه الملتهبة في كلماتٍ مؤثرةٍ بليغةٍ وهو يتحدّث عن العراق، ودعوته الصابرة الشريفة لنيل استقلاله وحريته، (فالثورة على الأتراك) بكلّ ما فيها من شكوى وعتابٍ، و(قصيدة الباكية) وهو يتحدّث عن (دمشق وبغداد) تلك القصيدة التي نظمها في أول تشرين الأول سنة ١٩١٨م، حينما أذاع الإنكليز في العراق أنّهم - لا العرب - أخذوا دمشق الشام، والتي يقول فيها[١]:

مـــاذا بنا وبـــذي الديـــار يُرادُ؟ فُقِـدت دمشــق، وقبلَهــا بغــدادُ

مــن موطــن الميعــاد قامــت نُزَّعًــا خيــلٌ لهــن بجِلَّــقٍ ميعــادُ

ســاءتْ وقائعهــا ومــا سرَّت بهــا لا الهجــرةُ الأولى، ولا الميــلادُ

وردتْ ميــاهَ الرافديــن مغــيرةً شــقرٌ مــن القــبِّ البطــونِ وِرادُ

هجــنٌ شــأونَ مــن الجيــاد كرائــمًا عربيّــة فكأنّهــن جِيــادُ

بــرَدَى وأوديــةُ الفــرات ودجلــة والنِّيــل غــصَّ بمائِهــا الــوُرّادُ

١. الشبيبي، محمد رضا، الديوان، ٤٥.

فقد شارك الشبيبي بوجدانه المتدفّق وعقليته المتحرّرة الوقّادة في بناء الحكم الوطني، وكافح الاستعمار في كلّ أشكاله في عهد الاحتلال وبعده، وكان في طليعة المشتغلين باخلاصٍ ووفاءٍ بالقضيّة العربيّة والعراقيّة.

الجانب الفكري

الفكر سمةٌ من سمات الشاعر المجدّد، وقد طبعت هذه السمة أغلب شعره، فهو يرى مثلًا في الظلم أقبح صفةٍ يتخلّق بها الجائرون الظالمون، فحزّ ذلك في قلبه، وهو يراهم يعملون ما يشاءون، فيقول فيهم:

يقولــون: إتيــان الكبائــرِ جائــزٌ
وفعــل الخطايــا المنكــرات مبــاحُ
أخـي هذه الأخـلاقُ للجنـس نهضةٌ
وللبــشرِ الآتــين منــه فــلاحُ
يريــدون للدنيــا ضــمادًا وإنّهــم
بجثــمان هــذا الاجتــماع جِــراحُ

فالنهضة التي يتطلّع لها الشبيبي لابدّ من أن يسهم أبناء شعبه فيها، إلّا أنّه يرى شبابًا لا يدركون معنى الإصلاح، وقيمة الفكر التجديدي، وشيبًا عاجزين عن فعل شيء، فيصرخ قائلًا:

شــبابٌ طائــشٌ نــزقُ
وشــيبٌ مابهــم رمــقُ
وشــعب طالــب ثقــةً
فدلــوه بمــن يثــقُ

ففـي آرائنـا شِـيعٌ
وفي أحزابنـا فـرقُ

والأروع ما قاله في الجانب الفكري، اعتقاده أنّ الحقيقة الكاملة معنىً مجازيّ، وكُلٌّ يقرؤها بمنظوره الخاصّ، ويعتقد جازمًا أنّها الحقيقة، فكتب قصيدته بعنوان (الحقيقة لا تدرك)، وهي نقدٌ للتقليد والجزميّة والتطرّف في إطار البحث العلمي، فيقول[1]:

يسـوقُ لـه دليـلَ تخرّصـاتٍ
ويمنـعُ خصمَـه أنْ يَسـتدّلا

يؤلّفهـا قياسًـا منطقيًّـا
تُمثّلـه قضايـا الوهـم شـكلا

رويـدك قـد فتنـتَ بهـا نفوسًـا
رأتـك لأنْ تهذبهـنَّ أهـلا

دجـى التقليـدِ مـاتَ ولـو
تقـرّى شـؤون المسـتقلين اسـتقلّا

يصـوب دونهـم طرفًـا غضيضًـا
ويقبـض دونهـم باعًـا أشـلّا

فمأسـورٌ وإنْ قالـوا طليـقٌ
ومأخـوذٌ وإنْ قالـوا مُخـلّى

بـماذا يـا نصـيرَ الجهـلِ قـلْ لي
تميـس تغطرسًـا وتميـل دلّا

١. عبد الحميد، صائب، معجم مؤرخي الشيعة، ١٩٦.

وما طاوٍ يهاب الوحشُ منه
عملّس يسحب الذيل الرقلّا
بأغدر منك إذ تبتزّ مالًا
يحرّمه النُهى وتراه حلّا
إذا وجد المريب بأرض جُبنٍ
تولاّها، وإنْ شجّتْ تولّى

الجهاد ضد الاستعمار

هكذا ظهر أثر هذا الوعي في الشعر بارزًا وواضحًا عند شعراء العراق البارزين، والذين يعدون في الطليعة، فقد نظم الشيخ محمد رضا الشبيبي قصيدةً هاجم فيها الاستعمار مهاجمةً عنيفةً، وتمثّل هذه القصيدة صورةً من فضل الشاعر وجهاده في الذود عن حياض المسلمين[1]:

عمَّ الثغور الموحشات ظلامُ
ودَجت لأنّك ثغرها البسّامُ
طوت الفيالق نُكسًّا أعلامها
إذ ليس تخفق بعدك الأعلامُ
رابطت في ثغر العراق وثغرها
يحمى الحجاز بسدّه والشامُ
سقط الذي شيدت من أركانه
وأعيد فيه النقض والابرامُ

١. الشبيبي، محمد رضا، الديوان، ١٨٠.

صالــت علــى تلــك المنيــة أختُهــا
وســطا علــى ذلــك الحــام حمــامُ
لله تســـــعة أشـــهرٍ قـضـيتُـــها
طالــت عليــك فــكلّ شــهرٍ عــامُ

وللشاعر قصيدة أخرى يتحدّث فيها عن واقعة الشعيبة التي تعدّ من أعظم المعارك، والواقعة المهمّة الأولى في حياة الحرب بالعراق، استنفر فيها العراقيّون، فقد جاء القائد سليمان عسكري بك، ومعه فريق من الجنود الأتراك متّجهين نحو البصرة، وهناك حدثت معركةٌ كبيرةٌ جرح فيها القائد التركي سليمان عسكري بك، في هجومه الذي شنه على الإنكليز، فذهب إلى بغداد للتداوي في المستشفى العسكري (خسته خانة المجيدية)، ولم يمكث غير أيامٍ قلائل، حتى عاد إلى أسلحة الحرب، وقد شوهد هذا القائد راكبًا عربة ولايزال مضطربًا من جرحه، ينتقل من مكانٍ إلى آخر، فيسوق الجيش ويدربه، وبعد أنْ رأى الجيش على شفا جرفٍ هرب موليًّا الأدبار، وأنّ معونته قد ضعفت فما كان من القائد إلّا الانتحار ألمًا وحسرةً بعد أنْ أبدى من الإخلاص والوفاء ما استحقّ به أنْ يخلد مع الأبطال.

وقد سجّل محمد رضا الشبيبي هذه المعركة الرهيبة، وأتى على كثيرٍ من تفاصيلها، فيرى فيها أشهر أيام الحرب العراقية، فقد كانت مناجزةً شديدةً، هزم في آخرها العثمانيون، وتركوا نصف ذلك الجيش بين قتيلٍ وجريحٍ وأسيرٍ وفقيدٍ، وقد جسّد لنا وقائع تلك الموقعة في قصيدةٍ سمّاها (يوم الشعيبة)، تحدث فيها عن معاناة الجيش العثماني الذي أقام ثلاثًا في خنادقها خالي الحقائب من ماءٍ ومن زاد، رغم موفور ماء الفراتين، و يبلغ الذروة حين يحدد سبب ذلك الخلل،

فإن أقواتنا - في بطون الذّر أكثرها، لا في بطون صعاليك وأجناد[١]:

نبـــتُ الربـا حمـرُ أشـــلاءٍ وأورادِ
منثــورةٌ لـك بـين القـصرِ فالـوادي
دون الشُّـــعَيْبةِ أجـــــسادٌ موزّعــةٌ
في البيــدِ توزيــعَ أعـــضاءٍ بأجســادِ
جيــشٌ أقـــــامَ ثلاثًـا في خـــنادقِها
خـــالي الحقائـبِ مـن مـاءٍ ومـن زادِ

د. مجد ثورة النجفيين

كان صراع الشبيبي مع الدولة العثمانيّة من وجهتين؛ إحداهما أنّها حائدة عن الطريق القويم للسلام، يتضح ذلك بظلمها، والأخرى لأنّها غاصبة حقوق العرب الذين قامت الدولة الإسلاميّة على أيديهم، ولكن الزمان أدّى بها إلى هؤلاء ولذلك يقول[٢]:

أمـا صفحنـا عـن المـاضي لأعينكـم أمـــا أديلـــت لكـــم ايامنـــا الأول

فالشبيبي يشعر بمجد العرب؛ ولذلك يثور بعنف وقوة، إثر ثورة النجفيين في عام ١٩١٥م، تلك الثورة التي انتهت بطرد الترك وحكم الأهالي لأنفسهم، حتى إذا جاء الإنكليز استطاعوا إخضاعهم، ففي هذا الحادث يقف ثائرًا ومفاخرًا يقول في قصيدته (ثورة على الأتراك)[٣]:

---

١. الشبيبي، محمد رضا، الديوان، ٤٧-٤٨.
٢. م. ن، ٢٧.
٣. م. ن، ٢٧.

لا الجـــبنُ ثار فأطفانا ولا البـخـلُ
الثائــرُ الحِقــدُ بالأقــوامِ والدخــلُ
لــو كان مــا بهــم جُبنًــا لمــا انتقمــوا
وفي طريــق بلــوغ النقمــة الأجــلُ
السيــف قــربّ مـــنّا كلّ قاصــيةً
لا المنطـقُ الفصـلُ من قـومٍ ولا الجدلُ

هـ. التنديد بسياسية الاستعمار في ثورة العشرين

انتفض الشعب العراقي في ثورة العشرين، ثم تلتها حركات أخرى تميزت بالبذل والفداء وإرخاص المهج والأرواح، وذلك للتخلّص من تعسّف المتعسفين وإثره المستأثرين، غير أنّها كانت شررًا ينبعث من الثورة الكبرى، وعاد التاريخ يعرّى أغراض أولئك الذين ناوأوا الوثبة الأولى، وساموا قادتها العذاب، ومقصدهم الوصول إلى المناصب الوثيرة، وحوربت وتألبت عليها قوى الشر بالمال والنعرات الهدامة وبذور الشقاق والأنانية والجشع والإثرة. لذلك يقف الشبيبي إزاء هذه الفعلة النكراء فيقول[1]:

أخــطأ الحــقَّ فــريقٌ بـــائسٌ
لــم يلـومـونــا ولاموا الــزمـــنا
خــسرت صفقتكــم مــن معــشرٍ
قــد شروا العــارَ وباعــوا الوطنــا
ارخـــصوه ولــو اعــتاضوا بـــه
هــذه الــدنيــا لقلّـــت ثـمنــا

١. الشبيبي، محمد رضا، الديوان، ١٠٥.

يـــا عبيـــد المـــال خـــيرٌ منـــــــكم

جـــهلاء يعـــــــبدون الـوثـــنا

وهكذا يندّد الشبيبي بالإنكليز وأتباعهم، ويصف الصراع بينهم وبين العشائر حينما طلبوا أسلحتهم وكان الطلب من هؤلاء حجةً ظاهرةً للانتقام منهم.

نتيجة البحث

وصل البحث إلى القسم الأخير، وهو تسجيل النتائج المتحصلة منه في النقاط التالية:

كان الشبيبي مجاهدًا من أجل استقلال العراق، وهو الذي صرخ في وجه الحاكم الإنكليزي ليعترف باستقلال بلاده، و هو صاحب دعوة أنْ يتحدّ الشام والعراق.

يعدّ الشبيبي من أهمّ أركان أدب المقاومة على الساحة العربيّة عمومًا، وعلى الساحة العراقيّة خصوصًا.

تمثّلت عناصر المقاومة في شعر الشبيبي بما يأتي:

الإشارة إلى القمع وفقدان الحريّة والمخبرين، وإظهار النقمة عليهم.

تحريض الشعب نحو الثورة على الاستبداد.

الدفاع عن الطبقات الفقيرة والمضطهدة.

لقد تضمّن شعر الشيخ محمد رضا الشبيبي حشدًا كبيرًا من المفردات ذات البعد الديني، وهذا يدلّ على أنّ الشاعر ذو ثقافةٍ دينيّةٍ واسعة.

يصوّر الشاعر من خلال عدسة شعره حالة الاختناق والكبت والرعب والمأساة التي يعانيها الشعب العراقي من الاستعمار وسياساته

يمتاز شعر الشبيبيّ بالصّدق الفنّي والوضوح والبساطة أو السهولة التي تميّز شعره من الشعراء المعاصرين الرّمزيين، فيسهل فهمه للعموم؛ لأنّه شاعر الشعب.

المصادر

١. أبو الشباب، واصف، القديم و الجديدفي الشعر العربي الحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٨م.

٢. آقابزرگ تهرانى، محمد حسن، الذريعة الى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، بيروت، ١٣٧٣ ق.

٣. بصري، مير، أعلام الأدب في العراق الحديث، دار الحكمة، لندن، ١٩٩٩م.

٤. الجميلي، ع، نگاهي به تاريخ سياسي عراق،ترجمه: محمد حسين زوار كعبه، حوز هنري تبليغات اسلامي، تهران، ١٣٧٠ه.ش.

٥. الجيلوسى، سلمى الخضراء، الاتجاهات والحركات فى الشعر العربي الحديث، الترجمة عبدالواحد لؤلؤة، الطبعة الأولى، بيروت. ٢٠٠١م.

٦. الحسني، عبد الرزاق، تاريخ العراق السياسي الحديث، دار الرافدين، بيروت، ٢٠٠٨م.

٧. الحمد، جواد و إياد البرغوثي، دراسة في الفكر السياسي لحركة المقاومة الإسلامية (حماس)، ط: ٢، عمان، مركز دراسات الشرق الأوسط، ١٩٩٩م.

٨. الحموي، صبحي، المنجد في اللغة العربيّة المعاصرة، دار المشرق، بيروت، بلا تاريخ.

٩. دلشاد جعفر وآخرون، الغربة في الشعر العراقي نموذجًا، مجلة العلوم الإنسانيّة الدوليّة، العدد١٥، ٢٠٠٨م.

١٠. الشبيبي، محمد رضا، الديوان، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٤٠م.

١١. الشربتي، أحمد حامد، الشبيبيّ في حكمه وأمثاله، دار الشؤون الثقافيّة العامة، بغداد، ١٩٨٢م.

١٢. عبد الحكيم، عمر، دعوة المقاومة الإسلاميّة العالمية. لا. مط، بيروت، ٢٠٠٤م

١٣. عبد شناوة، علي، محمد رضا الشبيبيّ ودوره الفكري والسياسيّ حتى العام ١٩٣٢، دار كوفان للنشر، العراق، ١٩٩٥م.

١٤. عبدالحميد، صائب، معجم مؤرّخي الشيعة، مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي، قم، ٢٠٠٤م

١٥. الغزالي، محمد الإسلام والاستبداد السياسي، دار النهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ١٩٩٧م.
١٦. فاخوري، حنّا، تاريخ الأدب العربي، توس، تهران، ١٣٨٠هـ.ش.
١٧. فوستر، هنري، نشأة العراق الحديث، ترجمة: عبد المسيح جويده، مطبعة الشعب، بغداد، ١٩٣٨م.
١٨. قدورة، زاهية، تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥م.
١٩. كياني، حسين وسيّد فضل الله ميرقادري، «شهيد وجانباز در شعر إبراهيم طوقان، شاعر مقاومت فلسطين». نشريه أدبيات پايداري، سال أول، شماره: ١، دانشگاه شهيد باهنر كرمان، ١٣٨٨هـ.ش.
٢٠. محسني نيا، ناصر، «مباني أدبيات مقاومت معاصر إيران و عرب». نشريه أدبيات پايداري، سال أول، شماره: ١، دانشگاه شهيد باهنر كرمان، ١٣٨٨هـ.ش.
٢١. معروف، لويس، المنجد فى اللغة والإعلام، نشر اسماعيليان، تهران، ١٣٦٢ هـ.ش.
٢٢. نفيسي، عبدالله فهد، نهضت شيعيان در انقلاب إسلامي عراق. مترجم: كاظم چايچيان، انتشارات أمير كبير، تهران، ١٣٦٤هـ.ش.
٢٣. الواعظ، رؤف، الإتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٤م.
٢٤. الوردي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق. الجزء السادس، لا.ب: لا. مط، ١٩٩٢م.